

ابن الخطيب السلمي وكتابه «الوَصُولُ لحِفْظِ الصِّحَّةِ في الفُصُولِ»^{*} تعريف وانتقاء

محمد العربي الخطّابي

يَعَدُّ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السَّلماني الشهير بابن الخطيب والملقبُ عند المشاركة بلسان الدين،⁽¹⁾ من أعلام الفكر والأدب وأقطاب السياسة والدولة في الأندلس الإسلامية، فذكره يجري على كلِّ لسان، ومؤلفاته في الأدب والتاريخ والتراجم والسير والتصوف معروفة مشهورة، وجلُّها مطبوع، وبعض أشعاره من محفوظات النَّاس، وقد وَلَّعَ بجمع أخباره بعض الأقدمين والمُحدثين يأتي على رأسهم

* تقدّم في هذا العدد نبذة عن عناية ابن الخطيب بعلم الطبّ وتعريفًا بكتاب «الوَصُول» مع منتخبات من جُزئه الأول. ونقدّم في عدد قادم - إن شاء الله - ملخصاً للجزء الثاني من هذا التصنيف.

(1) مصادر ترجمة أبي عبد الله ابن الخطيب كثيرة ومتوافرة نذكر منها : - (1) الإحاطة في أخبار غرناطة،

تحقيق محمد عبد الله عنان، الجزء الأول، (مقدمة المحقق): الجزء الرابع (ترجمة ابن الخطيب بقلمه) -

(2) نفح الطَّيِّب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد المقرئ، تحقيق إحسان عباس. - (3) لسان الدين بن

الخطيب حياته وتراثه الفكري، تأليف محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1388 هـ / 1968.

- (4) روضة التعريف لابن الخطيب، (مقدمة المحقق محمد الكتاني)، دار الثقافة، بيروت 1970. -

(5) بروكلمان. الذيل 2 : 73 - 272.

المقري مؤلف «نفح الطيّب» وكل هذا يُغني عن التعريف به وبآثاره في مختلف فنون المعرفة الأدبية والتاريخية.

ولمّا كان الغرض من هذا البحث الكلام على عناية ابن الخطيب بعلم الطبّ والتعريف بأهمّ كتاب ألفه فيه، فإن المنهج يقتضي الإتيان بنبذة يسيرة توضّح مكانته في هذا الميدان العلمي مع الإشارة إلى آثاره المكتوبة في الطبّ والأغذية وحفظ الصحة، لاسيما وأن هذا الجانب من نشاط ذي الوزارتين لم يلقَ إلى الآن ما هو أهل له من عناية ودراسة.

يُخبرنا ابن الخطيب في ترجمته لنفسه أنّه أخذ «الطبّ والتعاليم وصناعة التعديل على الإمام أبي زكريا بن هذيل» وأنه لازمه إلى آخر حياته⁽²⁾.

وأبو زكريا هذا هو يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي، أصله من أرجدونة Archedona، قال عنه ابن الخطيب: «كان آخرَ حَمَلَةِ الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها، من طبّ وهندسة وهيئة وأصول وأدب... غير مبالٍ بالناس، مشغولاً بخاصة نفسه، خدم أخيراً بباب السلطان بصناعة الطبّ، وقعد بالمدرسة بغرناطة يُقرئ الأصول والفرائض والطبّ»⁽³⁾.

من مؤلفات ابن هذيل «الاختبار والاعتبار في الطبّ» و«التذكرة في الطبّ»، وكلاهما من الآثار المفقودة، وقد توفّي في الخامس والعشرين من عام 753 هـ، وتولّى ابن الخطيب دفنه بباب البيرة في غرناطة بجوار زوجته تنفيذاً لوصيته⁽⁴⁾.

(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، 4 : 459، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1397 هـ / 1977 م.

(3) نفس المصدر : 4 : 390.

(4) نفس المصدر : 4 : 401.

وكان ابنُ الخطيب يُعزُّ أستاذه ابنَ هذيل إعزازاً شديداً، فلما أُصيب بالفالج نقله ابن الخطيب إلى منزله ولزمه حتى حضرته الوفاة، وكان قبل ذلك قد أُملى على تلميذه ابن الخطيب أبياتاً جاء فيها :

إِذَا مِتُّ فَادْفَنِي هَذَا حَلِيقِي يَخَالِطُ عَظْمِي فِي التَّرَابِ عَظَامَهَا
لَعَلَّ إِلَهَ الْعَرْشِ يَجْبُرُ صَدْعِي فَيُعَلِّي مَقَامِي عِنْدَهُ وَمَقَامَهَا

هذا ولم يذكر لنا ابنُ الخطيب شيخاً آخر من شيوخه في الطبِّ والتعاليم غير ابن هذيل.

ولسنا في حاجة إلى القول إن ذا الوزارتين لم يتفرَّغْ إلى ممارسة مهنة الطبِّ العملي تفرغاً كاملاً لانشغاله بأمور الدولة، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نؤكد أن عنايته بهذا الفنِّ كانت كبيرة بل إنها كانت أحياناً جزءاً من أعبائه الرسمية كما تدلُّ جميع القرائن، فهو قد ألَّف كتابه «عمل مَنْ طِبَّ لِمَنْ حَبَّ» لسلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن المريني (760 - 762 هـ / 1359 - 1361 م)، كما أهدى كتابه «الوصول لحفظ الصحة في الفصول» لسلطان مملكة غرناطة أبي عبد الله محمد الغني بالله النصري (755 - 793 هـ / 1354 - 1390 م) وقد صمَّن هذا الكتاب رسالةً في أحوال النوم واليقظة أملاها بباب هذا السلطان نفسه، وهو الذي أشار بتقييدها كما سنرى في القسم الذي عرضنا فيه فصولاً من هذا التأليف الذي أدرج ابن الخطيب في ثناياه بعض النصائح الطبية التي كان يُسديها للسلطان على مائدة الطعام وفي المجالس الخاصة تنبيهاً له إلى وجوب الاعتدال ومُغالبة الشهوات وما تقتضيه سلامة الصحة من حَذَر. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن ابنَ الخطيب كان طبيبَ البلاط إلى جانب ما تحمَّله من أعباء الوزارة، فضلاً عن انشغاله بالتأليف في الطبِّ والبيطرة والبيزرة.

مؤلفات ابن الخطيب في الطبّ والبيطرة

ونحن نعتد في ذكر مؤلفاته الطبية على ما جاء في كتاب الإحاطة في ترجمة المؤلف نفسه وفي نَفْح الطَّيِّب للمقري، وعلى ما وصلنا منها، وكلّه ما يزال مخطوطاً :

- رسالة الطاعون⁽⁵⁾.
- المسائل الطبيّة.
- الرّجز في عمل الترياق.
- اليوسفي في الطبّ.
- رسالة تكوين الجنين. (أشار إليها المؤلف في ثنايا كتاب الوصول).
- رَجَز في الطبّ⁽⁶⁾، وهو على الأرجح ما سَمّي في بعض المصادر بالأرجوزة المعلومة.
- رَجَز في الأغذية.
- عَمَلٌ من طبٍّ لمن حبّ⁽⁷⁾.
- كتاب في البيطرة وآخر في البّيْزرة.
- كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول الذي هو موضوع هذا المقال، ولعلّه أهمّ كتاب ألّفه ابن الخطيب في هذا العلم، واسمه دالٌّ على مسّاه من حيث إنه يُعنى بتدبير الصحة بما يُناسِب كلَّ فصل من فُصول السّنة الأربعة. ويتضمّن هذا الكتاب رسالة مستقلة بذاتها موضوعها «النوم واليقظة»، أملاها ابن الخطيب قبل تأليف كتاب الوصول.

(5) ذكرها ابن الخطيب في الإحاطة، وأشار إليها في كتاب الوُصُول عند الكلام على الأوبئة في الفصل الذي عرض فيه لتغيرات الهواء.

(6) توجد منه نسخة خطيّة في الخزانة الحسّنية بالقصر الملكي بالرباط، رقمها 515 / مجموع. عدد أبياتها 1600.

(7) توجد منه نسخة خطيّة في الخزانة الحسّنية، رقمها 3477 / مجموع (1)، ونسخة بخرانة القرويين في فاس رقمها 40 / 607، ونسخة أخرى في المكتبة الوطنية بمريد.

تعريفٌ بالكتاب

فرغ ابن الخطيب من تأليف «الْوَصُولِ لِحِفْظِ الصَّحَّةِ فِي الْفُصُولِ» في الثاني عشر من جمادى الأولى عام 771 هـ / 1369 م، أي قبل وفاته مقتولاً بنحو خمس سنين⁽⁸⁾، وأهداه للسلطان أبي عبد الله محمد الغني بالله النَّصْرِي، وضمَّنه خلاصةً معارفه وتجاربه في حفظ الصحة والأغذية والوقاية من الأمراض ومعرفة علاماتها قبل نزولها.

ويشتمل هذا التأليف على جزئين : جزء التعريف، وجزء التصريف. يُعالج الأول منها الجانبَ النظريَّ العام والثاني الجانبَ العملي في الوقاية وحفظ الصحة. وكلُّ جزء يشتمل على ثلاث قواعد، وكلُّ قاعدة مقسَّمة إلى أبواب وفُصول. وينتهي الكتاب بخاتمة يشرح فيها المؤلف الألفاظ الطبيَّة الاصطلاحية والألفاظ اللغوية مرتبةً على حُرُوفِ المعجم بالترتيب المتَّبَع عند أهل المغرب.

موضوعات الجزء الأول :

- حقيقة الفُصول وأسبابها، وهو مبحث يستعين بعلم الفلك والجغرافية الفلكية، يتكلَّم في الأفلاك وما في حشوها⁽⁹⁾، وفي الميل والاعتدال وطبائع الفُصول وتأثيرها في الأبدان، كما يتكلَّم في التغيرات التي تعرِّض للفُصول.

(8) توفي ابن الخطيب مقتولاً في سجنه بفاس عام 776 هـ / 1374 م.

(9) احتفظنا بعبارة المؤلف وألفاظه في بيان معظم مواضع الكتاب الذي وُضِعَ له ابن الخطيب فهرساً مفصلاً.

- الكليات التي تربط الفروع بالأصول وتشمل الكلام على العناصر التي يتركّب منها بدن الإنسان، وعلى المزاج والأخلاط والأعضاء والأرواح والقوى والأفعال.

- الأمور الضرورية للإنسان : الهواء ومنفعته وتغيّراته في نفسه، وتغيّراته لاختلاف الأماكن والبقاع، وتغيّراته الخارجة عن الطبيعة.

- المأكول والمشروب : تقدير الحاجة إلى الغذاء والاغتذاء، تطور المطعوم المغتذى في بدن الإنسان وأفعاله، وجه استعمال المأكول، سوء مغبّة الشهوات، أحكام ما يغتذى به وطبائعه، الكلام على بعض الأطعمة المطبوخة، نكت وأصول ترجع إلى مهنة الطبخ، ضرورة الماء ومنفعته في بدن الإنسان، أحكام أصناف الماء، استعمال الماء وغيره مما يشرب.

- أحكام الاحتباس والاستفراغ، منافع الاستحمام ومضارّه، الصحة الجنسية.
- أحوال النوم واليقظة : حقيقة النوم واليقظة، منافعها ومضارها.
- الحركة والسكون البدنيّين : الرياضة وأنواعها وأوقاتها.
- الحركة النفسانية وما توجه في بدن الإنسان.

موضوعات الجزء الثاني :

- اختلاف الأمزجة على الإجمال والتفصيل : حال المزاج المعتدل وعلاماته، حال المزاج الصّفراوي وعلاماته، حال المزاج السّوداوي وعلاماته.

- علامات الامتلاء.

- علامات تدلّ على اقتراب أمراضٍ يُتَحَفَّظُ منها قبل وقوعها.

- تدبير بَدَن الإنسان بحسب ما يتوالى عليه من الفُصول الأربعة (الربيع، الصيف، الشتاء، الخريف).

- تدبير البَدَن المنسوب إلى غلبة مزاجٍ من الأمزجة الأربعة في جميع فُصول السنة.

- تدبير الأَطْفال الرُّضْعَة (الرضعاء) إلى حَدِّ الدَّعْدَعَة⁽¹⁰⁾.

- إِصْلَاح أَخْلَاقِ الطِّفْلِ.

- تدبير الشيوخ الضَّرْعَة⁽¹¹⁾.

- تدبير المسافرين في البَرِّ والبَحْرِ من حيث الغذاء والمشروب واتِّقاء عوارض الطبيعة وما يصيب البدن من إعياء وحرٍّ وبرد.

أُسلوب المؤلِّف :

ابن الخطيب - كما هو معروف - أديب بارع وكتب تنقاد له المعاني والألفاظ، مع أنه كثيرُ الولع بالسجع الذي يبلغ أحياناً حدَّ التكلف والتعقير. إلا أن طبيعة التأليف الذي نحن بصده فرضت على المؤلِّف أن يلتزم الكتابة بأسلوب مُرسل خالٍ من السجع إلا في خطبة الكتاب وفي أماكن قليلةٍ منه، ومع ذلك فإنَّ عبارته تظلُّ في كثيرٍ من الأحيان دون ما يقتضيه الموضوع من سهولة اللفظ ووضوح التركيب مما يوقعه في الإبهام أحياناً، ويكلف القارئ بعضَ المشقة في استجلاء ما يقصده المؤلِّف، وابن الخطيب في هذا دون جَلَّة أطباء الأندلس من أمثال أبي القاسم الزَّهْرَاوِي (ت. حوالي عام 400 هـ)، وأبي مروان بن زُهر (ت. عام 557 هـ / 1162م)، وابن

(10) الدَّعْدَعَة : الحركة والمشي، والعَدُوُّ البطيء - رضعاء : جمع رضيع، ورضائع جمع رضيعة.

(11) الضَّرْعَة : جمع ضارع وَضَرَ، وهو الخاضع المنقاد، والمقصود الشيوخ الذين تضعف حيلتهم ويحتاجون إلى الرِّعاية.

خَلْصُون (ت. أوائل القرن الثامن الهجري)، مع أن ابن الخطيب قد أفاد منهم من حيث المادة العلمية كما استقى من ابن سينا وأضرابه.

هذا وتغلب على ابن الخطيب موهبته الأدبية حينما يقتضي المقام ذلك فيغرق في اختيار الألفاظ الفخمة المعبرة ويطنب في الوصف والتمثيل والتشبيه، ويؤثر التصريح على التلميح لإصابة الهدف المراد، ومن أمثلة ذلك الفصل الذي يتناول فيه التربية الجنسية حيث يعدد الدوافع الجسدية والنفسية المعينة على الانسجام الجنسي بين المرأة والرجل.

فمن الدوافع النفسانية - كما قال ابن الخطيب - :

«الاحتيال في رفع الحجل، وفتح أبواب المباسطة وترك الوقار، وإقامة أسواق التعاشق والتشابك والتزامل، والإفاضة في العمل قبل الشروع، وإجراء الحديث قبل الوقوع، وغزل خيوط المغازلة وإنشأ أنامل المراودة وترديد⁽¹²⁾ رسل الإشارات، وضحك العيون وغمز الأجفان وإظهار الشره. ويعضد ذلك من جهة الأنوثة الدل والغنج والتكسر والانكسار والرجرجة⁽¹³⁾ والانعطاف واللي والتألم والتباكي والتأفف والعض والغمز، وشفوف الثياب عن الأعضاء وتقلصها عن الأسافل، وجعجة الشنوف، وتعرية الطلاء والأعناق⁽¹⁴⁾».

«وما يحرك الفكر ويوقظ الخيال الإفاضة والفكر في أمور الجماع وأحواله، والتفنن فيمن يصلح لذلك من الأصناف كالحضرية بيضات⁽¹⁵⁾ النعيم وربات الترف وتمثيل

(12) في ب : وترسيل.

(13) الانكسار : الرجوع عن الطريق والمذهب. والرجرجة : الاضطراب.

(14) الشنوف : جمع شنف، وهو القرط. والطلا : جمع طلاء، صفحة العنق.

(15) في أ ب : فيضات.

المقاصِر والأبهاء، (ذوات الترائب)⁽¹⁶⁾ المحشوة والحدود المصقولة والزينة المتناهية والطيوب الذائعة والحليّ الرائعة، والظرف المتدي إلى اللطائف الخفية والآماد البعيدة، والأطراف التي خنقتها الأسورة والأحجال، والألسن التي تفنتت في الألفاظ العذبة والنزعات الخنيثة والمعاني الرشيقة.

والعرييات ظبيات [طباء] الفلأ وحور جنات الغلأ، ذوات الألوان الحمر والخصور المخطفة الهيف، والثنايا البارقة، والشفاه المعسولة، والعيون النجل، الخصوصات بالطيب الذائع، المحسوب من جملة الطبائع، والحركات الخفيفة والنفوس الشريفة، والمعاني اللطيفة، والفروج الناشفة، والمقبلات العذبة، والأنوف القويمة.

والمغرييات ذوات الشعور الجثلة والوجوه السّمة والمباسم الحلوة والشفاه المعسولة اللّمي والحوّة⁽¹⁷⁾ والمعاصم التي كملت الودائل زينها ورقم نبال الوشوم لجينها.

وبنات الرّوم ذوات البياض الساطع، والثّدي الناهد، والجسوم المخطفة الشحوم⁽¹⁸⁾، المعتدلة اللّحوم المختالات في أقبية الديباج الضيقة، المحلاة أزرتها وأطواقها بالحليّ الرائعة والخرزات الثّمينة يفتنّ بغرابة العجمة ويخلبن بمستندر النزعة.

وها نحن نرى كيف خلع ابن الخطيب عذار الوقار الذي يتوقع من مثله، وأطلق العنان لقلمه يصوّر مفاتن الحضريات والبدويات والمغرييات والروميات من النساء تصوير عارف خبير، وطبيب لا يتحرج من إسداء النصّح المطلوب من صاحب المهنة، ولا ينسى، في نفس الوقت، أنه أديب يفرض عليه المقام أن يجود القلم وأن ينقاد لسلطان البيان، فتلك مهنته التي سقى فيها وبرز.

(16) عبارة ساقطة في ب.

(17) في ج : والحلوة. والحوّة من حويت الشفة حوّة : احمرّت حمرة ضاربة إلى السواد.

(18) في ج : الشحوم.

ويمكن القول إن ابن الخطيب قد تفوّق في هذا الباب الذي أفرده للصحة الجنسية على من سبقه من الأطباء، بل إنه قد فاق الأطباء المتخصصين في عصرنا هذا من حيث الإطناب في وصف الصّلات الحميمة بين المرأة والرجل وتصويرها بكامل الدقة والصراحة حتى إنه بلغ حدّ الإثارة، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة في هذا الأمر إلا فصلّها، وكأنه أحسّ بذلك فقال في خاتمة المطاف : «وقد أمعنا القول في هذا الفصل حتى كدنا نخرج عن الغرض، إذ جعلناه تملّحاً مناسباً لما يجري في أسرار الملوك والمترفين، ولعلّه لا يخلو من فائدة».

منهج المؤلّف :

استوعب ابن الخطيب عناصر موضوع التّأليف، وربط بين جزئي التعريف والتصريف ربطاً يحقق الغرض الذي توخّاه، وشرّحه في خطبة الكتاب بقوله - بعد الكلام على العناية باسترجاع الصحة بعد ضياعها، وكثرة ما ظهر في ذلك من كنانيش العلاج ودواوينه :

«ولو حُكّم الإنصاف لكان حفظُ الصحة أولى بالعناية وأحقّ بالإفصاح والكناية، إذ لو حَفِظَ منها الغرض، ووُفِّيَ المفترَض لقلَّ أن يروع سِرُّها المرض، فظهر لي أن اعتني بما غُفِلَ وأُهمِلَ فما اعتُبر ولا تُؤمَّل، وأن أقصد وأجمل، وأتم وأكْمِل... أتحرّى أن يكون طوعَ يد الشادي والقاصر، ومُحَسِبَ البادي والحاضر... فرتّبته ترتيباً سهلاً المسالك على السالك، قريبَ المأخذ على الناظر فيه والآخذ، يُمتّع بعجائب الطبائع وأسرارها، ويُلَمِّع بقوى الأسباب القاضية وآثارها، ويرتّب حفظ الصحة بحسب الفصول والأزمان، ويُشيد بحكمة الرّحمن، ويقرّر على تعاقبها سياسة الأبدان، وينصح الحبيب، ويُغني عن ملازمة الطبيب، ويَحْضُر عند نَصَبِ الموائد، ويجيب إذا سُئِلَ عن العوائد، ويُصلِحُ ضرر المفاسد... مستوعباً من أسرار الطبائع المسخّرة بإذن

الله ما يَبْهَرُ الْعَقْلَ عَجَائِبُهُ، وَيَهْزِمُ الشَّكَّ فِي اللَّهِ كَتَائِبُهُ... فجاء جامعاً لما تفرَّق في الأسفار، مثيراً للاعتبار..

والحقيقة أن الكتاب مستوفٍ لما ذكره المؤلف في خطبته، وقد سار فيه على منهج علميٍّ سليمٍ بقدر ما وسعه الجُهد، واستقصى فيه مَعَارِفَ عصره في مسائل حفظ الصحة وتدير بدن الإنسان في حال سلامته، فبدأ بالكليات مستقصياً ما يتعلق بالموضوع من تعاقب الفصول وما يحدث فيها من تَغْيِراتٍ طَبِيعِيَّةٍ ناشئة عن دورة الأفلاك، مع بيان طبائع هذه الفصول وتأثيرها في الأبدان، ثم انتقل إلى الكلام على الضروريات التي لا تقوم حياةً بدونها كالهواء والشَّس والغذاء والماء والنوم واليقظة، كما تكلم على أهمية التربية الجنسية والرياضة في تقويم الأبدان وحفظ توازنها.

ويستعرض ابن الخطيب في جزء التعريف، أنواع الأطعمة الحيوانية والنباتية وطبائعها ومنافع كل منها أو مضارها، ويأتي بفصل طريفٍ عن أصول فنّ الطبخ، ومقوماته الأساسية.

وينتقل المؤلف في الجزء الثاني من الكتاب إلى الجانب العملي والتطبيقي من حفظ الصحة بحسب فصول السنة مراعيّاً في ذلك سنَّ الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة وما يطرأ عليه من عوارض يقتضيها الاجتماع الإنساني كالسَّقر وركوب أهوال البرّ والبحر.

وينتهي المؤلف بإثبات مُعْجَمٍ يشرح فيه الألفاظ اللُّغَوِيَّة والاصطلاحية التي وردت في الكتاب حرصاً منه على حسن التبليغ، وقد وُضِعَت الألفاظ في هذا المُعْجَم بالصيغة التي وردت في السياق من غير إرجاعها إلى أصلها الاشتقائي، ورُتِّبَت على حُرُوف المُعْجَم على النسق المعروف عند المغاربة.

فصول مختارة من كتاب الوُصول :

وقد رأيت من الفائدة أن أنتقي من الكتاب فصولاً ومقاطع، مراعيّاً في انتقائها ما قد يكون فيها من طرافة وجدة، أو فائدة علمية أو لغوية أو تاريخية يمكن أن تستأثر باهتمام الباحثين، على أن أقدم هذه النصوص محقّقة - اعتماداً على النسخ الأربع التي بين يدي⁽¹⁹⁾، مع شرح ما يقتضي الحال شرحه من ألفاظ وعبارات، تاركاً تقدير النصوص من الناحية العلمية لأهل التخصص من الأطباء وعلماء النفس وغيرهم.

1 - جُزء التعريف

تأثير الفُصول في الأبدان :

«اعلم أن الله - جل جلاله - خلق العالم منتظماً مرتبطاً، وجعل بعضه سبباً لبعضه أو كلاً له، فكما أن الفصول انقسمت بحركات الأجرام العلوية وتعيّنت طبائعها من حارّ

(19) اعتمدنا في انتقاء الفُصول وتحقيقها على أربع نسخ محفوظة بالخزانة الحسنية في الرباط وهي :

(أ) نسخة برقم 797، وهي بخط مغربي مليح، جيدة في الجملة، لم يرد فيها اسم الناسخ ولا تاريخ الفرغ من كتابتها.

(ب) نسخة برقم 590، وهي بخط يد الطبيب أبي القاسم بن محمد الغساني الشهير بالوزير، انتسخها في شعبان عام 978 هـ برسم خزانة السلطان السعدي أبي محمد عبد الله بن محمد المهدي الشريف الحسني، وهي نسخة جيدة لولا ما بها من خروم.

(ج) نسخة برقم 77، وهي بخط أبي عبد الله التطاري، فُغ من نسخها في 27 رمضان عام 1291.

(د) نسخة برقم 979، وهي بخط أبي عبد الله محمد بن محمد بن موسى الخليفي، فُغ من نسخها في شهر ذي الحجة عام 1000 هـ.

وبارد ورطب ويابس، فكَذَلِكَ عَالَمُ الْكُونِ وَالْفَسَادِ الْمُرْتَبِطُ بِالْعَالَمِ الْعُلُويِّ الْمُنَافِئُ عَنْ آثَارِهِ الْعُلُويَّةِ، الْمَعْلُولُ بِعِلَلِهِ الْقَصِيَّةِ، اشْتَمَلَ مِنْهُ مُقَعَّرُ فَلَكَ الْقَمَرُ عَلَى عُنَاصِرٍ لِكُلِّ مَكُونٍ مِنْ مَعْدِنٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ أَرْبَعَةٍ كَأَرْبَعَةِ الْفُصُولِ ذَوَاتِ طِبَائِعٍ أَرْبَعٍ كَطِبَائِعِهَا، مِنْهَا اثْنَانِ ثَقِيلَانِ : الْمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَاثْنَانِ خَفِيفَانِ : النَّارُ وَالْهَوَاءُ.

فَالْأَرْضُ يَابِسَةٌ كَفَصْلِ الْخَرِيفِ، وَالْمَاءُ بَارِدٌ كَفَصْلِ الشِّتَاءِ، وَالْهَوَاءُ رَطْبٌ كَفَصْلِ الرَّبِيعِ، وَالنَّارُ حَارَةٌ كَفَصْلِ الصَّيْفِ، وَيَقَعُ الْإِتِّصَافُ بِالْتَّرَكِيبِ كَمَا مَرَّ فِي الْفُصُولِ⁽²⁰⁾ فَتَحْصُلُ بِهَذِهِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِعْلُ الْأَقْصَى فِي الْأَدْنَى وَإِنْفِعَالُ الْأَدْنَى عَنِ الْأَعْلَى، وَكَانَ لِكُلِّ رَكْنٍ أَسْلٌ يَحْفَظُ عَلَيْهِ طَبِيعَهُ وَيَكْفَى عَنْهُ ضَرُّهُ، فَعِنْدَمَا قَوِيَ سُلْطَانُ الْفَصْلِ تَبَعَتْهُ أَجْزَاءُ عَالَمِ الْكُونِ مِثْلُ أَنْ يَدْخُلَ فَصْلُ الشِّتَاءِ فَيُبْرِدُ الْأَرْضَ وَيَجْمَدُ الرُّطُوبَاتِ أَوْ يَقْوَى الْحَرَّ فَيُسِيلُهَا أَوْ تَقْوَى الرُّطُوبَةُ فَتَكْتَفِيهَا أَوْ الْيُبْسُ فَيَجْفِفُهَا. وَبِالْجُمْلَةِ فَآثَارُ الْفُصُولِ فِي أَمْزَجَةِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ لَا يَخْفَى لِلْحَسَنِ، وَكَلَامُنَا فِي الْإِنْسَانِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ بِاسْتِحْكَامِ فَصْلِ الْبَرْدِ أَمْرَاضُهُ الْبَارِدَةُ كَالْحَدَرِ وَالْجُمُودِ وَالْأَوْجَاعِ الْبَارِدَةِ، وَتَصْلُحُ مِنْهُ الْأَمْزَجَةُ الَّتِي يُضَادُّهَا طَبِيعُ ذَلِكَ الْفَصْلِ - وَهِيَ الْحَارَةُ - وَيَتَحَرَّكُ بِاسْتِحْكَامِ فَصْلِ الْحَرِّ الْأَمْرَاضُ الْحَارَةُ مِنَ الْحُمَيَّاتِ وَالرَّمَدِ وَالصُّدَاعِ وَالْأَوْجَاعِ الْحَارَةِ، وَتَصْلُحُ الْأَمْزَجَةُ الَّتِي يُضَادُّهَا هَذَا الْفَصْلُ⁽²¹⁾ وَتَتَحَرَّكُ بِاسْتِحْكَامِ فَصْلِ الْيُبْسِ الْأَمْرَاضُ الْيَابِسَةُ مِنَ الْمَالِنَخَوَلِيَّاتِ⁽²²⁾ وَالْجَرَبِ وَالْوَسْوَاسِ، وَتَصْلُحُ الْأَمْزَجَةُ الَّتِي يُضَادُّهَا هَذَا الْفَصْلُ وَتَتَحَكَّمُ بِاسْتِحْكَامِ فَصْلِ الرُّطُوبَةِ الْأَمْرَاضُ الدَّمَوِيَّةُ مِنَ الْأَوْرَامِ وَالْدَّمَامِيلِ وَالْحُمَيَّاتِ الْمَطْبِقَةِ وَانْدِفَاعِ الرُّطُوبَاتِ إِلَى الْأَمْعَاءِ، وَتَصْلُحُ الْأَمْزَجَةُ الَّتِي يُضَادُّهَا طَبِيعُ ذَلِكَ الْفَصْلِ».

(20) يَشِيرُ الْمُؤَلِّفُ إِلَى الْبَابِ السَّابِقِ الَّذِي تَعَرَّضَ فِيهِ لَطِبَائِعِ الْفُصُولِ وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنْ بَرْدٍ أَوْ حَرٍّ أَوْ اعْتِدَالٍ.

(21) فِي ب : طَبِيعُ ذَلِكَ الْفَصْلِ.

(22) يَرِدُ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ الْكِتَابِ مُعْجَمٌ يَشْرَحُ الْمِصْطَلَحَاتِ الطِّبِيَّةَ، وَهُوَ مَا سَنَلْخِصُهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْقُرْصِ فِي عَدَدٍ قَادِمٍ مِنَ الْمَجْلَدِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَقَدْ اقْتَصَرْنَا عَلَى شَرْحِ بَعْضِ الْمِصْطَلَحَاتِ الطِّبِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَرُدْ فِي هَذَا الْمُعْجَمِ.

تغيرات تعرّض للفصول :

«إن الفصول، لَمَّا تَعَيَّن وجودها وأمزجةٌ تحُصُّها، كانت تقبل التأثيرات كما يقبلها غيرها مما له طَبْعٌ أو ما تَغْلِب عليه كيفية، والتغيرات التي تعرّض للفصول مُخْرِجَةٌ إياها عن أمزجتها الطبيعية إما عامةً تَطْرُقها بحسب الأمور الفلكية، أو خاصةً بالمساكن بحسب أوضاعها، والأول يتغيّر به الفصل في نفسه، والثاني يتغيّر بحسب ما يجد أهل البلد من تأثيره، وقد يجتمع التغيّران بحسب البلد.

فأما أسباب التغيّرات العامة فأمورٌ تَحْدُث في الأفلاك عن اقتران كواكب وتقابل نِيراتٍ أو أشعةٍ تقتضي مطارحُها تأثيراتٍ، أو قرب أحد الكواكب من الشمس أو استقامة أو رجوع من حركات الكواكب في أفلاك التدوير... مما ادّعى أربابُه صدق التجربة فيه، بإذن الله، وأنه تظهر عنه أمطارٌ في أزمانها خارجةً عن المعتاد أو في غير أزمانها مُغَيَّرَة لطبيعة الفصل، أو غير أمطار من رياح جنوبية أو شمالية تُثير أولاهما تسخيناً كثيراً مناسباً للفصل أو مخالفاً، وتثير ثانيتهما برداً كثيراً مناسباً، وأمثال هذا.

وأما التغيرات الخاصة بأوضاع البلد مما تتغير طبيعة الفصل فيه فكالبلاد التي تكون مجاورةً للجبال الشمالية فإنها تُغيّر فصلَ البرد إلى بردٍ أشدّ وطبعَ الحرِّ إلى أنقَصَ، وكالبلاد الجنوبية التي تُغيّر فصلَ الحرِّ إلى حرٍّ أزيدَ وفصلَ البرد إلى بردٍ أنقَصَ، وللبلاد البحرية وللصحراويات والسبائخ في هذا أحكامٌ نستوفيها في الموضع الذي يليق بذلك إن شاء الله.

فإذا عَلِمَ حَالُ الفصل وبقاؤه على أصل طبعه أو خروجه عنه - إما لأمرٍ فلكيٍّ أو عارضٍ وضعي - دَبَّر فيه حفظُ الصحة بما يليق، وعلى الإجمال فإنَّ الحَالَ الطبيعية في

الفصول التي قوامها بها هو أن يكون كلُّ فصلٍ محفوظةً عليه كَيْفِيَّتُهُ غيرَ مَشْوَبَةٍ ولا متغيِّرةً، فيكون الصيف حارًّا والشتاء باردًا والربيع معتدلاً، وربما غَيَّرَتْ طَبِيعَ الفصل كَيْفِيَّةً غلبَ سُلْطَانُهَا عَلَيْهِ فَأَعَادَهُ إِلَى الصَّلاَحِ تَغْيِيرَ يُضَادِّهِ، وَالسَّنَّةُ الْمُسْتَمِرَّةُ الْفُصُولَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ وَاحِدَةٍ سَنَةً رَدِيئَةً كَأَن يَكُونَ طَبِيعَ السَّنَةِ، مَعَ اخْتِلَافِ الْفُصُولِ، مَنْسُوباً إِلَى الْيَبْسِ أَوِ الْبَرْدِ أَوِ الرُّطُوبَةِ أَوِ الْحَرَارَةِ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ السَّنَةِ تَكُونُ كَثِيرَةَ الْأَمْرَاضِ الْمُنَاسِبَةِ لِكَيْفِيَّتِهَا ثُمَّ تَطُولُ مُدَّهَا.

وَأَصَحُّ الْفُصُولِ هُوَ أَن يَكُونَ الْخَرِيفُ مَطِيراً وَالشَّتَاءُ مَعْتَدِلاً لَيْسَ عَادِماً لِلْبَرْدِ وَلَكِنْ غَيْرَ مُفْرِطٍ فِيهِ بِالْقِيَاسِ إِلَى الْبَلَدِ، وَإِنْ جَاءَ الرَّبِيعُ مَطِيراً وَلَمْ يَخْلُ الصَّيْفُ عَنِ الْمَطَرِ فَهُوَ خَيْرٌ مَا يُفْتَرَضُ فِي ذَلِكَ.

الأمور الضرورية للإنسان :

الهواء : «قد تقدَّم أنَّ جِسْماً بَخَارِيّاً يَتَوَلَّدُ فِي التَّجْوِيفِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ يُسَمَّى رُوحاً حَيَوَانِيّاً⁽²³⁾، وَتَقْدَمُ أَنَّ الرُّوحَ - الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْبَدَنِ - أَحَرُّ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ، وَلَشِدَّةِ حَرَارَتِهِ وَاحْتِقَانِهِ تَزِيدُ حَرَارَتَهُ بِطَوِيلِ الزَّمَانِ شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ، وَلِلطَّفِ مَادَّتِهِ يَسْرِعُ قَبُولُهُ لِلتَّحَلُّلِ وَيُلْزِمُ الْمَوْتَ مَعَ نَهَايَةِ تَحَلُّلِهِ، فَهِيَ اللَّهُ لَهُ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ التَّزَايِدِ وَالِاشْتِدَادِ بِطَوِيلِ اللَّبْثِ وَيُعَدِّلُ حَرَّهُ إِذَا أَفْرَطَ بِالِاحْتِقَانِ وَيَنْقِي مَا

(23) شرح المؤلف في الباب الخامس من القاعدة الثانية ما يقصده الأطباء بالأرواح، وهي عندهم ثلاثة : رُوحٌ طَبِيعِيٌّ وَرُوحٌ حَيَوَانِيٌّ وَرُوحٌ نَفْسَانِيٌّ، وَمُرَادُهُمْ - بِلُغَةِ هَذَا الْعَصْرِ - مَا يَحْفَظُ الْحَيَاةَ وَالنَّوْءَ وَالْحَرَكَةَ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ كَالْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ وَالْجِهَازِ النَّفْسِيِّ وَالدَّوْرَةَ الدَّمَوِيَّةَ... (يراجع في هذا الباب الكتاب الأول من قانون ابن سينا، والباب الذي يتعرض فيه الشيخ الرئيس للأخلاق والأعضاء والأرواح والقوى الحيوانية والنفسية في أرجوزته الألفية المشهورة).

شاب جوهره من أجزاء احتراقية، وهو الهواء المبّاشر بالاستنشاق المُجَدّد بحركة التنفّس، إذ كان الهواء بالنسبة إلى مزاج الرّوح بارداً وجعله - كما ذُكر - واصلًا بواسطة الرئة وأنابيبها لما منه في القلب وبواسطة المسامّ المبتوثة في سائر الجلد إلى ما استقرّ منه في تجاويف الشرايين، فإذا جاوزه في الرئة والشرايين أو خالطه مع اتّصافه بالصلوح لذلك عدّله وبرّده ومنعه من الاشتداد وحفّظ عليه مزاجه الذي تستقيم به حالة الحياة مدّة العمر. ولما كان ما يصل إليه من الهواء يستحيل إلى المُحتقن ويصير إلى [مثل]⁽²⁴⁾ ما اتّصل به إذا فعل فيه الاحتقان فيخرج عن طبع البرودة إلى ضدها، خلق الله له الآلات الكيرية ليكون متتالي الورود والخروج بحركة التنفّس على الدوام، واستلزم إخراج الهواء المحتقن منفعة عظيمة، وهي ما يستصعبه الهواء الخارج من الفضول الدخانية⁽²⁵⁾ التي أشرنا إليها. فقد بان أن الهواء الخارج عن البدن المحيط بالإنسان أحد الأمور الضرورية له في بقائه».

تَغْيِيرُ هَوَاءٍ : «ولما كان الهواء ربما بقي على أصله بحسب الفصول والأوضاع التي تستصحب معها الحالة الصحية للروح، وربما خرج عنها لتغيّر يعتريه وجب اعتباره ما يعتريه من التغيّرات، وتغيّراته منها طبيعية ومنها غير طبيعية. فالطبيعية هي التغيّرات التي تطرّقه بحسب الفصول مما يتّصف له بالاعتدال والحرّ والبرد والرطوبة واليبس، وغير الطبيعية تكون لأموّر سماوية أو أرضية، فالسماوية كالذي يحدث فيه تبعاً لمقارنة الشمس بعض الكواكب أو مقارنتها لسمّت الرؤوس أو حلولها ببعض البروج، ومثل هذا مما يتزَيّد لأجله كيفة من كيفيات الهواء، وينظر هذا في كتب النجوم الأحكامية من تشوّف إليه، والأرضية كالرياح إمّا مطلقاً، كما يتبع الريح الجنوبية الحرّ والرطوبة لمرورها بالجهة الحارة الكثيرة البخار والشمالية بضدها، فإن الهواء يتغيّر لذلك برداً وسخانة بما لاخفاء به، وإما بحسب البقع، فربما اتفق أن

(24) كلمة ساقطة في أ، ج.

(25) يقصد بالفضول الدخانية ما يسمى اليوم بثاني أكسيد الكربون.

تكون الجنوب الحارّة أبرد من الشمال الباردة إذا مرّت بـجبالٍ ثلجٍ باردة أو بحار، وأن تكون الشمال الباردة أحرّ من الجنوب الحارّة إذا مرّت بـبرارٍ محترقة يابسة، وعلى هذا يجري القياس في الشرقية المعتدلة والغربية.

«والمقصود الآن ما يوجبه هواءٌ كلّ إقليم في أمزجة ساكنيه، فالبلاد الحارّة جداً مُسوّدة للأبدان مُفلّفة للشعور مُضعفة للحرّ الغريزي يسرع فيها الهرم، والمساكن الباردة بالضدّ، [والمساكن الرّطبة أهلها لَيَنُو الجلود لا يُفِرط بهم حرّ الصيف ولا برد الشتاء، والمساكن اليابسة بالضدّ]⁽²⁶⁾، ويتغير بحسب المساكن من جهة ارتفاعها وانخفاضها، فالمرتفع أبرد من المنخفض، والكائن في قنّة⁽²⁷⁾ الجبال أشدّ برداً والذي في الغور أشدّ حرّاً، أو بحسب وضع الجبال من المساكن، وهو يؤثّر من جهتين : أحدها برّد شعاع الشمس عليها ومنعته، والثاني بمنع الرياح، فإن كان الجبل مغرباً أو شمالاً من البلد انعكس شعاع الشمس عليه ومنع عنه الريح الشمالية والغربية فيكون أسخن ممّا الجبل منه بخلاف ذلك في الأمر الأكثر، ويتغير بحسب وضع البحار من البلدان، فما جاور منها البحار كان هواؤه أرطبّ وأغلظ ممّا لم يجاورها، وإن كانت البحار شمالية عنها أوجبت زيادة تبريد، أو كانت جنوبية كسّرت من حرّ الجنوب وزادت في غلظها، ويتغير بحسب التربة⁽²⁸⁾ من الأرض، فإن كانت حجرية أو رملية كان هواؤها يابساً سريع التسخين سريع التبريد، أو كانت حمايية⁽²⁹⁾ وسبخية كانت رطبة، وإن كانت معدنية غلبت عليها قوة ذلك المعدن الموجود، وجميع ما ذكرنا من أصناف التغيّرات ليس معدوداً فيما يُضادّ الطبيعة، والذي يُضادّ الطبيعة نذكره بحول الله».

(26) ما بين معقوفين ساقط في ب.

(27) في أ : أقنة، والقنّة أعلى الجبل، والجمع قنن وقنان.

(28) في ب : الرتبة، وهو تصحيف.

(29) حماية، نسبة لحما أو الحمأة، وهو الطين الأسود المنتن، وقد وردت في ب : حماية، والصواب أن ترسم هكذا : حَمَيَّة كسبئية من سبأ.

(ج) التغيّرات المضادّة للطبيعة من تغيّرات الهواء.

«ولمّا كان الهواء بجرّاً محيطاً بما خلق الله في الأرض إحاطة بجرّ الماء بما فيه من المخلوقات أُلْفِيَ ذلك البحرُ الهوائيُّ يحدث فيه وفي جواهره - وهي الرطوبات المبتوثة فيه - ما يعرض لبرك الماء المستنقع من الأسنّ والتّعفين وتغيّر الريح والطعم، وهو الذي ينطلق عليه اسم الوباء، إما فاشياً في العالم أو أكثر العالم كما وقع على عهدنا من الوباء العام⁽³⁰⁾ الذي استأثر بنحو سبعة أعشار الإنسان - زعموا - أو في بعضه دون بعض، أو يكون التغير المُفسد في كيفية الهواء فقط، فيفرط - مثلاً - حرّ الصيف أو برد الشتاء لأحد أسباب ذلك حتى يخرج إلى حدّ الفساد المخالف للطبيعة، وإذا اتّصف الهواء بالصفة الوبائية أفسد الحياة بتعفين الروح الذي في القلب لشدة مجاورته ومخالطته له، وكذلك يضرّ بالنبات والأشجار فيضرّ بما يعتلفه من البهائم ويضرّ من يأكلها من الإنسان بظهور الحمّيات العفنة والجُدري والطواعين، وإذا اتّصف بانحراف الكيف كان مفسداً في كيفية الحرّ بالتحليل وإضعاف القوى، وفي كيفية البرد بإماتة الروح وإطفاء الحرارة الغريزية، فيجب ملاحظة أحوال الهواء لما قرّرناه من ضروريته وما يحدث عن تغيّرات تلحقه، والحيلة بمقاومات ما خرج إليه من الكيفيات لئلاً يؤذي الروح، إما بما يُضادّ الكيفية الفاسدة أو يُصلح الكية⁽³¹⁾ بالانتقال إلى غيره مما لم يفسد.

وقد كنا عند اضطراب النَّاس في أمر الطاعون العام أُملينا يوماً بباب السلطان على من به من الأطباء مقالةً نبيلة هي اليوم مشهورة شائعة.

(30) في أ : ج : على عهد من...، يشير المؤلف هنا إلى الوباء العام الذي ضرب معظم أقطار البحر الأبيض المتوسط عام 749 هـ، وقد خصّه أحمد بن خاتمة الأندلسي (ت بعد 770 هـ / 1369م) برسالة سماها : «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد». وهذا الوباء هو الذي دفع بابن الخطيب إلى تأليف رسالة في الطاعون، كما تقدم.

(31) في أ : الكيفية.

(د) الغذاء :

«إنَّ شَأْنَ مَا يُتَنَاوَلُ مِنْ مَطْعُومٍ أَنْ يَحْصَلَ لَهُ فِي الْفَمِ عِنْدَ الْمَضْغِ هَضْمٌ مَّا، ثُمَّ يَسْتَقِرُّ فِي الْمَعْدَةِ وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ اشْتِمَالُ الزَّنْبِيلِ الَّذِي يُوعَى فِيهِ الْقُوَّةُ فَيُطْبَخُ بِحَرَارَةِ بَثْنِهَا اللَّهُ فِي قَعْرِ الْمَعْدَةِ لِمَكَانٍ لَحْمٍ [هناك]⁽³²⁾ وَلِئَامٍ يَحْفَ بِهَا مِنْ أَعْضَاءٍ حَارَّةٍ حَتَّى يَتَهَرَأَ وَيَخْتَلِطُ، وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ - جَلَّ وَتَعَالَى - بَابَ الْمَعْدَةِ الْأَسْفَلَ بِالْإِنْسَادِ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْإِنْفِتَاحِ وَحَلَّ يَدَ الْقُوَّةِ الْمَمْسُكَةِ بِقَدَرٍ لِيَنْفِذَ الطَّعَامَ بَعْدَ أَنْ صَارَ كَيْلُوساً إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعْدَةِ مِنَ الْأَمْعَاءِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَجْتَذِبُهُ الْعُرُوقُ الْمُتَّصِلَةُ بَيْنَ الْكَبِدِ وَبَيْنَ الْأَمْعَاءِ، وَتَمَصُّ صَفْوَهُ وَتَتْرَكُ نَفَايِثَهُ فَضْلاً تَنْدَفِعُ عَنِ الْبَدَنِ، ثُمَّ إِذَا بَلَغَ الْكَبِدُ صَفْوُ الْغِذَاءِ وَتَحَصَّلَ مِنْهُ فِي الْعِرْقِ الْمَسْمَى بِالْبَابِ⁽³³⁾ ثُمَّ تَفْرَعُ فِي فُرُوعِهِ الدَّخَالَةِ إِلَى الْأَجُوفِ - وَرَطُوبَةِ الْمَاءِ الْمَشْرُوبِ أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ تَرْقِّقُهُ وَتُنْفِذُهُ - انْهَضَمَ فِي الْكَبِدِ انْهَضَاماً ثَانِياً يَتَكُونُ عَنْهُ كَيْمُوسٌ وَخِلْطٌ... وَعِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْأَجُوفِ تَمَصُّ الْكُلَيْيَةُ فِيهِ الْمَائِيَّةَ⁽³⁴⁾ وَتَصُبُّهَا فِي الْمَثَانَةِ، وَسَائِرُهُ يَسْرِي فِي الْعُرُوقِ دِماً مُصَفًى يَمِدُّ الرُّطُوبَاتِ الْمَحْصُورَةَ فِي تَجَاوِيفِ الْأَعْضَاءِ الَّتِي تَسْقِيهَا وَالْمَبْثُوثَةَ فِي الْأَعْضَاءِ الْأَصْلِيَّةِ كَالطَّلِّ وَالرُّطُوبَةِ الَّتِي صَارَتْ جِزْءاً مِنَ الْعِضْوِ فِي مَزَاجِهِ وَقَوَامِهِ، وَالرُّطُوبَةُ الْمَدْخَالَةُ لِلْعِضْوِ الَّتِي بِهَا اتَّصَلَتْ أَجْزَاؤُهُ وَانْحَفَظَ تَشْكِيلُهُ، فَإِنْ كَانَ الْمَطْعُومُ الْمُسْتَحِيلُ دِماً، كَانَ الْكَائِنُ بِالْقُوَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفِعْلِ عِضْواً مُعْتَدِلاً فِي كَمِّهِ وَكَيْفِهِ بِحَيْثُ لَا يَنْفَعِلُ عَنْهُ الْبَدَنُ إِلَى كَيْفِيَّةٍ خَارِجَةٍ عَنْ طَبْعِهِ وَلَا يَزِيدُ أَيْضاً عَلَى مِقْدَارِ حَاجَتِهِ فَيَحَارِبُهُ وَتَشْتَغِلُ قُوَاهُ بِمُدَافَعَتِهِ أَوْ صَرْفِهِ إِلَى أَفْضَى وَتَجَاوِيفَ تَخْزِنُهُ بِهَا حَتَّى يَطْرُقَ الْخُتْرَنُ فِي الْأَمَاكِنِ الْمُغْفَلَةِ مِنَ الْفَسَادِ وَالتَّعَفُّنِ، أَوْ لَا يَنْقُصُ عَنِ الْحَاجَةِ فَيَذْبُلُ الْبَدَنُ اسْتِقَامَتَ بِهِ الْحَالِ الصَّحِيَّةِ وَجَرَتْ عَلَى مَعْتَادِهَا، وَإِنْ كَانَ بِالضَّدِّ كَانَ الْأَمْرُ بِالضَّدِّ مِنْ عَوْدِهِ

(32) ساقطة في ب.

(33) الباب، ويقال البواب وهو فتحة في أسفل المعدة متصلة بالمعي الاثنى عشري، بالفرنسية Pylore وبالانجليزية Pylorus :

بالعلل الصعبة وإخلاله بآلات الهضم إخلالَ الحبوب المغشوشة بسطوح الأُرحية حتى لا تفعلَ أفاعيلها.

(هـ) آثار الغذاء في بدن الإنسان وأفعاله :

«المأكول والمشروب يفعل في بدن الإنسان بوجوده إما بكيفيته كأن يُسخّن البدن أو يبرده أو يرطّبه أو ييبسه، وإما بصورته وهو أن يفعل فيه فعلاً من جنس هذه الكيفيات كالأدوية المسهلة، وإما بعنصره وهو أن يصير جزءاً من الأعضاء ومتشبهاً بها، وهذا هو الغذاء المقصود بالكلام الكلّي في هذا الموضع. ولا يخلو الغذاء من أن يكون لطيفاً أو كثيفاً أو معتدلاً».

«فاللطيف هو الذي يتولد منه دم رقيق، والكثيف هو الذي يتولد منه دم غليظ، والمعتدل هو الذي يتولد منه دم معتدل، ويقال أيضاً : إما قليل الغذاء - وهو ما يتولّد عنه دم يسير - أو كثير الغذاء - وهو ما يتولد منه دم كثير - أو معتدل، وهو الوسط، ويقال أيضاً إما سريع الاستحالة إلى الدم أو بطيء الاستحالة إليه أو متوسط بينهما، ويقال أيضاً إما رديء الكيوس وإما حسن الكيوس».

أصولٌ ترجع إلى مهنة الطبّخ

«فأولها أن تعلم أن الوسائل بين القوة والحيوانية إذا اعتدلت ولم تطرقها الشهوات الخارجة عن الاعتدال جملة، ولا أعظم من الحلاوة وطيب الرائحة، فأما الرائحة الطيبة فلقرّبها من طبيعة الروح، وأما الحلاوة فلكونها صفة طعم الدم المعتدل الذي هو غذاء الروح، وبعده ما اتّصف بالدم والتفاهة».

«قالوا : الأغذية تكتسب قبل الطبخ طعوماً وكيفياتٍ من طريق ما يخالط دمَّ ما له دمٌّ أو يتلوَّث به من فضله أو يجاوره من ذي كيفية غريبة، وإصلاح ذلك العسل ولقط ما تعلق به، فإن كانت الكيفية مَرَّارَةً أو عُفُوصَةً أو حَرَّافَةً أو مُلُوحَةً فالسُّلُق بالماء يُذهب ذلك، وإن كانت رائحةً رديئةً فالأبازير الموافقة تُصلح ذلك، وما لا تُذهبه الأبازيرُ من الكيفيات أذهبه الحُلُّ والكزبرة الرطبة».

«قالوا : والأبازير لا تنهضم من قبل الطباع، ولما يسري منها حريشاً في الأعضاء مَضَرَّةٌ كبيرة، وَحَقُّهَا أَنْ يُنْعَمَ سَحَقُهَا وَيُلْقَى فِي الطَّعَامِ لِأَوَّلِ أَمْرِهِ حَتَّى تَنْضَجَ بِنَضْجِهِ لئَلَّا تُحَارِبَهَا الطَّبَاعُ إِنْ بَقِيَتْ فِجَّةً، وَإِنْ كَانَتْ رَطْبَةً لَا تَقْبَلُ السَّحْقَ عَصِرَتْ وَأُخِذَ مَاؤُهَا، وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأَبَازِيرُ عَسِرَةُ الْإِنْشَامِ عَلَى الطَّبَاعِ وَغَرِيبَةٌ فِي الْمَأْكُولِ».

«وقالوا : ما كان من الطعام حريفاً لَذَاعاً قَحْلاً جافاً فالزيت والدهن يُصلحه وَيَكْسِرُ حَدَّتَهُ، وَمَا كَانَ لَا طَعْمَ لَهُ فَالْحُلُّ وَالْأَبَازِيرُ تُطَيِّبُهُ، وَمَا كَانَ زَهياً بَارِداً فَالْمَلْحُ يُصْلَحُهُ».

«وَأَفَاتِ الطَّبِيخِ حَرَقُ النَّارِ وَقَدَرٌ⁽³⁵⁾ الْأَوَانِي وَكَثْرَةُ الْأَبَازِيرِ فِيمَا حَقَّهُ أَنْ يَقَلَّلَ فِيهِ، وَقِلَّتُهَا فِيمَا حَقَّهُ أَنْ يَكْثُرَ فِيهِ. وَسَهُولَةُ اللَّحْمِ لَا يَزِيلُهَا إِلَّا السُّلُقُ وَالتَّنْقِيقَةُ ثُمَّ نَزْعُ الرِّغْوَةِ عِنْدَ الطَّبِيخِ بِالْمِغْرِفَةِ الْمُتَقَبَّةِ الَّتِي تَمْسُكُ الرِّغْوَةَ وَتُرْسِلُ الْمَرْقَ. وَاللَّحْمُ الْمَهْزُولُ صَلاَحُهُ أَنْ يُسَلَّقَ قَبْلَ طَبْخِهِ».

«قالوا : وأجود النَّارِ نَارُ الْفَحْمِ وَبَعْدُهَا النَّارُ مِنَ الْحَطَبِ الْيَابِسِ إِذَا اسْتَوَتْ وَسَكَنَ لَهْيُهَا وَدَخَانُهَا».

(34) المائية : يعني السوائل.

(35) في ج : وقدر.

«وقالوا : أفضل الأواني - لو امكن اتّخاذه - الذهب ثم الفضة، وبعدها الفخار ثمّ الحنتم⁽³⁶⁾، وأن يطبخ في الفخار مرةً وفي الحنتم خمس مرات، وكثرة الطبخ بها يُكسب الطعام سُميةً⁽³⁷⁾ مُهلكة، وأواني الحديد تُقوّي الأعضاء الباطنة، والنحاس يفسد المزاج، وخصوصاً ما قلّي فيه، وأواني الرصاص والقصدير جيدة إلا أنها يبطئ فيها الطبخ».

«قالوا : وينبغي ألاّ يغطى بعد جعله في الأغذرة⁽³⁸⁾ أو قبلها إلا بما يُنفس عنه البخار، وأن تكون أغذية القدور مُثَقَّبة ثَقْباً خفية، وهذا الحكم يتأكّد في أطعمة الحوت».

«والختار للقلّي أواني الرصاص والقصدير».

«ومظان السموم المُخلّلات، وأولاها بذلك الحلاوات. ومن المأمون النفع من جميع السموم حجر البازهر وحجر الزمرد، [فيستف من مسحوق الزمرد]⁽³⁹⁾ تسع حَبّات، ومن البازهر أربع حَبّات شعير.

الماء :

«الماء ركنٌ من أركان البدن... إلا أنه اختصّ وحده من بينها بدخوله في جملة ما يتناول الإنسان، وهو إن كان داخلياً في جملة ما يتناول فإنه لا يغذو، إذ الغاذي لا

(36) الحنتم : هو الخزف الأسود أو الأخضر.

(37) سُمية : ما يسبب التسمم.

(38) الأغذرة : هكذا في جميع النسخ، والصواب - فيما يبدو لي - الأغضرة، جمع غَضَار بفتح الغين المعجمة وبالضاد. والغضار - كما في لسان العرب - الصفحة المتخذة من الطين الحرّ. وقال الثعالبي إن الغضارة كلمة مولدة.

(39) عبارة ساقطة في ج.

بدَّ أن يستحيل إلى طبع ما يغذوه [ويقبل صورته، والجسم البسيط لا يستحيل إلى قبول صورة دُموية أو عُضوية]⁽⁴⁰⁾، لكنه ضروري في تنفيذ الغذاء وتوصيله وبَذْرَقته⁽⁴¹⁾ وتسهيل جريه في العروق الضيقة والمخارج بحيث لا يُستغنى عنه في ذلك أو عما ينوب منابه. فكما أنَّ الطبيب يجعل في الدواء المركَّب دواءً لا غرض له فيه إلا أن يوصل الدواء إلى الموضع الذي يريده ببعض قوى المَوْصَل، كأن يركَّب دواءً إلى المثانة فيجعل فيه شيئاً من الذراريح⁽⁴²⁾ التي لا تقصد إلى غير المثانة فتحمل معها الدواء، فكَذلك جعل اللطيفُ الخبيرُ - وله المثل الأعلى - من جملة منافع الماء التَّوَصُّلَ للغذاء وإنفاذه إلى الكبد وإجراؤه في العروق إذ كانت أكثر تلك المجاري ضيقة لا يَنفُذُ فيها جرم الغذاء لولا الماء، حتى إذا استولى طبخ الكبد وعروقها عليه مَصَّتْ الكُلْيَةُ الماءَ المَوْصَل وطرحته بؤلاً بعدما استصحب في حال انصرافه بقية دم تغتذي منه الكُلْيَةُ والمثانة كي لا تعدم المصلحة مشيعاً أو مودعاً. ولولا انصرافه عن البدن لأفرط استنقاع الأعضاء وكان الاستسقاء الذي يَعرُض إذا تعطلَّ فعل الكُلْيَةِ. والماء مع هذا المقصد يبلُّ الأعضاء بالمجاورة ويقمع الحرَّ، فكان ضرورياً بهذا الاعتبار.

أحكام أصناف الماء

«قالوا : أفضل المياه مياهُ العيون، وبخصوصِ العيون الحَرَّة⁽⁴³⁾ الأرض، وهي التي لا يغلب على تربتها شيء من الكيفيات الغريبة، ولا كلَّ عينٍ حَرَّةُ التربة بل التي تكون جارية، وبخصوصِ المكشوفة للشمس والرياح، وبخصوص الطينية المسيل من

(40) عبارة ساقطة في أ.

(41) البذرقة : الترقيق.

(42) الذراريح : جمع ذراح، حشرة حمراء منقطة بسواد، تطير، أكبر جرماً من الذباب، وهي من السموم.

(43) الحرة : الخالصة من الشوائب.

غير وجود حَمَاءة وهي خير من الحَجَرِيّة، وبخصوص ما كانت جَرِيّته بماءٍ غَمْرٍ، وبخصوص ما كان شديد الجريّة، وبخصوص إلى الشرق، وبخصوص إذا بَعُد من مفرجه ثم ما توجه إلى الشمال بخلاف المتوجّه إلى الجنوب والمغرب فهو أَرْدأ لا سيما عند هبوب الجنوب، وبخصوص ما انْحَدَر من مواضع عالية، ثم [ما]⁽⁴⁴⁾ خِيلَ مذاقه الحلاوة وكان خفيف الوزن سريع القبول للتبريد والإسخان، وبارداً في الشتاء حارّاً في الصيف، لا يغلب عليه طعم ولا رائحة، سريع الانحدار من المعدة سريع طبخ ما يُطبخ فيه، ويختبرونه بخرقتين أو قطنين متساويين تَبْلَان، وكذلك في سرعة النشف واليبس».

«والتصعيد والتقطير يُصلح المياه ودونه⁽⁴⁵⁾ الطَّبَخ».

«ومن المياه المختارة ماء المطر، وبخصوص المطر الصيفي ثم ما كان عن سحب راعد، إلا أن العفونة تُسرّع إليه لرقّة جوهره ولطافته وقبوله لذلك التأثير الأرضي والهوائي، وربما أصلحه الطَّبَخ».

«ومياه الآبار رديئة بالنسبة إلى مياه العيون لاحتقانها ومخالطة الأرضية واستعدادها إلى قبول الفساد والمطاوله، وشَرّها وأضرّها بالأمعاء ما أجرى في قنّا⁽⁴⁶⁾ الرصاص وأنابيبه».

«وماء النَّزَّ شَرٌّ من ماء البير - والنز هو المحتلب من التراب ضعيفاً - وأكثر ما يكون النَّز في أرض رخوة رديئة».

(44) [ما] : ساقطة في ب.

(45) في ب : ودونها.

(46) قنا : اسم جنس جمعي، مفردة قناة، والجمع قنوات.

«ومياه الثلج والجليد غليظة».

«والمياه الزاكية غير المحجوبة من الهواء والشمس ثقيلة رديئة تولد أمراضاً صعبة، والراكد على كل حال ضارٌّ بالأحشاء، وما لا يجري فهو ثقيل».

«والمياه العَلَقِيَّة رديئة. وما يجري على المعادن يكتسب قواها، فالحديدية تُقَوِّي الأعضاء الباطنة، والنحاسية تُفسد المزاج، والماء المِلْح يهزل ويقشف وييس الدم، والمياه الحَمِيَّة⁽⁴⁷⁾ تضرّ الشبّان وأرباب الأمزجة الحارة لقوى الكبريت، وتصلح بالمشايخ والمبرودين، وتجلو الجلود وتُحَمِّر الألوان، والنشادرية لا تصلح للشرب وهي تطلق البطن، والشبِّيَّة (منسوبة إلى الشبّ) كذلك، وتنفع من سيلان الطَّمْث والرطوبة».

«ومياه الجَمْد والثلج إذا كانت نقيّة فالذي يُحلّل للشرب أو يُطرح منه في الماء أو يُبرد به من خارج صالح، وإن كانت غير نقيّة أجزأ منها التبريد من خارج».

«والماء البارد المعتدل المقدار أوفق المياه للأصحاء مع إضراره بالعصب وأورام الأحشاء، والماء البارد يشدّ المعدة وينبّه الشهوة، والحرّ يُفسد الهضم ويذبل البدن، والفاتر يغثي، والذي فوقه في الإسخان إذا شرب على الرقيق غسل المعدة الكثيرة الرطوبات».

بعض الأشربة ومنافعها :

جرت عادة الأطباء في هذا المحلّ أن يذكروا الشراب المسكر وتناول أنواعه وتقرير اختياراته وما يليق بكل واحد واحد من الأمزجة أن يدبّر به منه وأشتات نُقْلِهِ وما

(47) المياه الحمية، منسوبة إلى الحمة : عين مياه تنبع من الأرض حارة يستشفى بها.

يدفع مضرته والكلام على منافعه النفسانية والبدنية، وقد كان ذلك يسوغ لنا من حيث إن هذه الصناعة عامة لمن تسوّغ له نخلته استعمال الشراب ومن لا تسوّغ له نخلته ذلك، أو من حيث يكون لمجتنب السكر من أهل الكتاب لا حرج عليه فيما يسوّغه لهم دينهم، إلا أننا نزهنا الكتاب عن ذلك إجلالاً لمحل من رفعناه إليه وقصدناه بنصيحته، ومناسبة لما تحلّى به من صادق الورع واتّصف به من أصيل الفضل وتميّز به من اجتناب الشبهات، والملك سوق فما نفق فيه انتفق... ونجتزئ في هذا المكان بذكر أشربة تقوم مقام ما عدّلنا عن ذكره مما يتّصف بالحليّة.

«فما فيه الخلاف الشهير⁽⁴⁸⁾ الأنبذة، وهي تسخن البدن والمعدة والكبد وتدرّ البول وتطلق البطن، وكذلك ما جرت عادة الفضلاء بإطرائه من الربوب المتخذة بجمال الريف من أرض المغرب، ولها مع ذلك أن تسرّ النفس وتطربها بما تثير من سخونة، والعصير المجمعول فيه أصل الكبّر⁽⁴⁹⁾ مما يتخذ ببعض بلاد الأندلس فنعه من الغليان وكذلك الصّاب⁽⁵⁰⁾ وربما أضيف إليهما الأدوية المفرحة وكلاهما يهضم ويسخن وما جعل فيه المفراحات يفرح ويطرّد الرياح ويعين على الباءة، والفقّاع المتخذ بالبلاد المشرقية من الشعير والزبيب والأرز والحواري والخمير صالح لإدراار البول وتسكين الصفراء، ويجعل فيه الكرّفس والنعنع فيصلح بالمبرودين».

«ومن الأشربة التي تصلح بالمحرورين في هذا الباب السكّنّجين وشراب الحصرم والحماض والجلاب والّرمان وشراب العسل وماء العسل والماء الممزوج بالعسل والسكر مما يصلح بالشيوخ والمبرودين.

(48) الظاهر أن المؤلف يقصد الخلاف الفقهي في مسألة النبيذ وهل يجري عليه ما يجري على الخمر من حيث التحريم باعتبار أن كل مسكر حرام، قليله وكثيره.

(49) الكبّر: هو الراوند الجبلي، ويعرف بالكرمة السوداء، من فصيلة الكبزيات، وحبه من التوابل، واسمه اللاتيني: Caparis spinosa.

(50) الصّاب: طعام يتخذ من الخردل والزبيب يؤتدم به.

الحَمَّام :

«الحَمَّام من أحسن ما انتهت إليه الحِيلُ الإنْسانِيَّةُ في حفظ الصَّحَّةِ وانْتِهاء⁽⁵¹⁾ الزينة ملاءمةً للطباع ومحاكاةً للفصول وجمعاً بين الأضداد. وأفضله ما قَدَّمَ منه البناء وطاب الهواء واتَّسعت الأرجاء وَعَذَّبَ الماء، ولكل بيت من بيوته طبيعة تناسب بعضَ طبائع الإنسان».

«الماء العذب البارد يشدُّ البدن ويقوِّيه، والاعتسال بالماء البارد لا يصلح إلا بمن كان تدبيره من كلِّ الوجوه موافقاً، وسنَّه وقوِّته وسنَّته مناسبةً، فإنه يهزم الحارَّ الغريزي أولاً ثم يقوِّيه بالانجماع على البروز، ولا يصلح الاعتسال بالمياه الباردة بالشيخ ولا الصبي ولا بصاحب التَّخمة ولا القيء والإسهال والسهر، ويختار له وقت النشاط والاستنشاق إلى البارد، وأفضله في الصيف عند الظهيرة لمن لا يحتمله في سائر الفصول».

«ولسائر المياه فيه أحكام، فالمياه النطرونية والحجرية والكبريتية والرَّمادية والمالحة، طبعاً أو علاجاً، تحلَّل وتلطَّف وتزيل الرَّهْل⁽⁵²⁾ وتنفع انصباب الموادِّ إلى القروح، [والنحاسية]⁽⁵³⁾ والحديدية تنفع من أمراض البرد والرطوبة والاسترخاء والرَّبو ووجع المفاصل، والبُورقية تجلو وتنفع الرؤوس القابلة للمواد والاستسقاء، والشَّبِّيَّة والزَّاجِيَّة تنفع من نزف الدم من المَقْعَدَة وأمثال ذلك، والكبريتية كماء الحَمَّات⁽⁵⁴⁾ تُنَقِّي الأعصاب وتحلِّل الزَّمانات وتذهب الفضول، والمياه الحَمِيَّة تملأ الرؤوس فيجب على المستحمِّ بها أن لا يغمس رأسه... وحقُّ المستحمِّ بها أن يتدرَّج ويترقَّق».

(51) في ب، ج : وإبتغاء الزينة.

(52) في ب : الرمد، والرَّهْل اضطراب اللحم واسترخاؤه.

(53) ساقطة في ج.

(54) في ب : الحمامات، وفي ج الحمامات.

«ومما يتعلّق بذكر الحّمّام في هذا المكان التّضحّي⁽⁵⁵⁾ بالشمس والاندفان في الرّمْل، والتّضحّي ممّا يحلّل الفضول لا سيما مع حركة شديدة، وينفع أمراضاً صعبة غليظة، والسكون في التّضحّي أشدّ بكيفية الحرّ الحادث بسطح البدن من التّحرّك والاندفان في الرّمْل، وبخصوص رمل البحر يحلّل كذلك الأوجاع والاستسقاء والرّبو».

«قالوا : من منافع الحّمّام أن يُطَرّي البدن ويُفَتّح المسامّ ويحلّل الأوساخ التي ترتبك فيه ويخفّف الامتلاء ويفشّ الرياح ويَجلب النوم ويرقق الأخلاط ويسكّن الأوجاع ويمنع الخِلْفَة⁽⁵⁶⁾ ويذهب بالإعياء ويهيئ البدن للاغتذاء».

«قال بعضهم : إن الحّمّام يفعل في النفوس ما يفعله الحجر من السرور والإطناب، ولذلك نجد أكثر الناس يُغَنّون في الحّمّام. ومن مضارّه أنه يسخّن القلب ويُسقط القوة ويهيج العثّى ويَجلب العُثْي ويَجعل للموادّ السبب إلى الانصباب، ولذلك ينبغي أن يحذره من به حمّى أو سَحْج⁽⁵⁷⁾ أو قرحة أو فسخ أو ورم، ويحذر دخوله على الشّبع إلا من يريد السمن، ومن اضطرّ إلى دخوله بعده، فليشرب بعده السكّنُجيين ويلطف التدبير ما أمكن».

أحوال النوم واليقظة :

«ونحن نجتزئ عن بيان حال النوم واليقظة بجلب ما قيد عنا في هذه الأيام، فعسى أن يكون أئين وأبسط مما تضمّنته كتب من سبقنا من الأطباء⁽⁵⁸⁾، وهو أنّ السلطان

(55) التّضحّي بالشمس : الانتصاب والقيود لها.

(56) الخِلْفَة : (بكسر الخاء) : فساد المعدة من الطعام يسبّب إسهالاً.

(57) السّحْج : تقشر الجلد.

(58) خص ابن الخطيب أحوال النوم واليقظة بكلام طويل، وقد رأيت أن أقصر منه على هذه الرسالة برمتها، وهي مستقلة بذاتها، وقد أحسن المؤلف صنعا بتضمينها في كتاب الوصول، الأمر الذي حفظها من الضياع، وهي في غاية الطرافة رغم التواء أسلوبها.

سألني عن حقيقة السَّهر لما مرضت وأصابني السهر، (الأرق) وتردَّدت زيارة السلطان - أعزه الله - إِيَّاي، وكان يَعْرِضُ لي كلَّما رمت الغَمضَ أو قاربتَه ضَرْبانَ في قلبي يُسرِّعُ له نبضي ويَتَّبِعُه القلق الذي تسوء معه حالي. فقلت - على عادي في بيان الأمور الغامضة له بالمثُل بما اقتضاه حسن استماعه وصحَّةُ تمييزه وفضلُ حرصه على كاله» :

«اعلم أن جملة الإنسان - حسباً تقرر في محلّه - مملكةٌ مستقلة بذاتها، ملكها القلب ونائبه القوة المدبَّرة في مَعْقِلِه ومحلُّ خزائنه - وهو الدماغ - والقوَّةُ الحافظة خازنُه، وقوَّةُ الخيال مُنهي الأخبار إليه ورافعُها إلى دَسْتِه، والحواسُ الخمس جُنْدُه الذين اقتسموا حِرَاسَةَ جهات المملكة ونواحي أقطار العمالة وقعدوا لما يَطْرُقُ العمالة - وهي الجسد - من كلِّ جهة يمكن أن يَطْرُقَ منها، والقوى الطبيعية التي في الكبد خَدَمَةُ المطبخ وَوَلَاةُ الأرزاق ومُقَدِّروا النفقات».

«فتى ورد على طرفٍ من أطراف العمالة المذكورة واردٌ مؤلِّمٌ كان أو مُلِدٌ تَلَقَّاه الحارس الذي يلي طريقه من أصناف جُنْدِ الحواس الخمس، بَصْراً أو سَمْعاً أو شَمّاً أو ذوقاً أو لمساً، وصاح به وأنذر بوروده ووجَّهَ بريدَ الحسِّ يُعرِّفُ به فصار على مسلك التعريف - وهو العَصَبُ طريق الكلِّ إلى قلعة السلطان - فعَرِّفَ بالوارد صاحب الأخبار ومتوليها - وهو الحِسُّ المشترك - فقرَّر الأمر بعد أن يَفْصِلُه الكاتب - وهو الخيال - ويهيئه إلى قبول الوزير - وهي القوة المفكرة - بعد أن يَنْهِيَ ذلك إلى الملك - وهو الروح الذي في القلب - فإن كان ذلك الأمر الوارد الذي يُعرِّفُ به مما يقتضي التراخي والإرجاء والاسترخان دُفِعَ إلى خازن الحفظ [فيودِعُه خزانة القوة الحافظة، فإذا احتيج إليه يوماً ما طُلِبَ خديمُ خزانة الحِفْظِ⁽⁵⁹⁾ - وهي قوة الذكر -

بإحضاره، فاستحضرت القوة الذاكرة، وإن كان موجباً لتعجيل الحركة وإمضاء الحكم وكان مما يعمل فيه النظر ويُلمَس الرأي شاوَر الملكُ القوةَ المفكرة إن كان الأمر رويةً أو عجلةً أو كان بدهيةً، وحركَ بعدَ خدامِ النفرة عنه أو النزوع بواسطة الإرادة، وحركت الإرادةُ الأعضاء الآليةَ بواسطة العضل الذي هو واسطة الحركات الجِرمية فكان الإقدام على الشيءِ والمدافعةُ له أو الفرارُ عنه وطلبُ النجاة من شرّه، وربما أعجل الأمر عن الشورى إذا⁽⁶⁰⁾ أُحضر جليسُ القوة المتهوِّمة وأنفذ الحكم بديهيةً، وإن قترَ الخبرُ ولأن التعريف أو تَوَالِي⁽⁶¹⁾ بانفصال الوارد الخبر أو صحَّ بكذب المعرّف الأول به التعريفُ استصحبت حاله السكون، مثال ذلك : أن يطرق من جهة حُرّاس السمع صوتٌ وألفاظ تدلّ على معاني كلامٍ من شعرٍ أو حكمة أو قانونٍ عِلْمِيٍّ فيؤدّيه السمع من باب الصّماخ إلى عصب الحسّ المشترك وينظر فيه الخيال ويؤديه إلى قوة الفكر فيتحدّث فيه مع القلب ثم يستحفظه في مخزن القوة الحافظة، فإن كان المخزن سليماً والحازن أميناً - وهو المتّصف بالحال الطبيعية - أدّاه متى طُلب إلى الخديم - وهي قوة الذكر - بحاله لم تختلط بسواه ولا نقص شيء من كميّته، أو كان مما يتّصف بالإخلال جرى الأمر فيه بغير ذلك، وربما بحث خديمُ خزانة الحفظ - وهو الذكر - عن المقدار الذي ضاع فجَبَّره أو ربما عجز عن جَبِّره، أو يطرق من جهة حارس البصر صورةً شيءٍ مقبليّ يدنو إلى المدينة فيُسرع الإخبارُ به إلى الخيال على طريق العصب الأجوف فيفصله بأن رأى فيه آلاتِ السباع أو ذواتِ النهوش والسموم أدّى خبره إلى الملك، وقد حكم بأنه عدوّ فحدّر محرك⁽⁶²⁾ الملك قوة النفرة عنه والحدز، إما مستعجلاً بالحكم قبل استشارة الوزير بإغراء خديم القوة الوهمية، أو بعد الاستشارة، وبحسب قوة العدو أو ضعفه يكون الاهتمام بأمره أو الإلغاء وعدم

(60) في ب : إذ.

(61) في ب، ج : أو توالى.

(62) في أ : بأنه عدو يحذر، حرك.

المبالاة، وإن حَكَمَ الخيال على الصورة بالملاءمة كالأشكال التي تصلح للشهوة من مطعوم أو محل نكاح حَرَكَ الملك - وهو القلب - خدام النزوع إلى الشيء والحب له على قبوله والحرص على تناوله، وسَخَرَتِ الإرادةُ آلات الحركة».

«وعلى هذا السبيل في سائر رُتَبِ الحواس مدةً اشتغال النفس بتدبير البدن وعلاقتها به».

«ولما كان شغل هذه القوى بهذه الوظائف وحُكْمُ القلب فيها كدّاً ونصباً لا تحمله صورة الحيوان احتاج إلى ما يَحْتَاجُ إليه كل متحرك ذي آليَةٍ يطرقها الكلال والتحليل ما لم توفر ويخلف ما تحلّل منها، وهو زمان سكون ودَعَة وهُدوء وفراغ، فجعل الله - سبحانه - الليلَ لباساً [والنوم سُبَاتاً] (63) والنَّهارَ معاشاً، وَقَدَّرَ (64) زمان ذلك السكون الذي تقع فيه راحةُ القوة النفسية بالليل، وكأنَّ (65) الليل ظلّ الأرض عندما يحول جرمها بين أهلها وبين نور الشمس فيفقدون النور الذي تَدْرِكُ به المبصرات المرئية، وجعل ذلك السبات والسكون المسمّى بالنوم مسبباً عن الليل لانتقباض الأرواح منه واستيحاشها ونفرتها من برده المضاد لطبع الروح، ومن ظلمته المضادة لطبع النور، ولخلوه عن المآرب المعاشية لعائق (66) الظلام، فكانت الأرواح النفسانية وأكثر الحيوانية ترتدي (67) به كلّ ليلة عند الإحساس به أمام البرد التابع لغروب الشمس المضادّ لطبع الروح [والظلمة المضادة لطبع نور الروح] (68) راجعة كلها

(63) عبارة ساقطة في ج.

(64) في ج : وقرن.

(65) في ج : وكان.

(66) في ج : لعائق.

(67) في ب : ترتد، وفي ج : تزيد.

(68) عبارات ساقطة في ج.

إلى المركز والملجأ معدن الحرّ الغريزي وينبوع الروح ما لم تَعْقَهَا عن ذلك عوائق قسرية وموانع غير طبيعية لتستمدّ منه عوضاً مما حلّلتها الوظائف الحركية في حال اليقظة، ويفرغ القلب أيضاً من شغب الحكم والمطالبة وإلحاح الفكرة التي تحجب عنه، ويشتغل بصلاح نفسه وتناول غذائه وتخلي عند ذلك من الحرسة الأطراف وتسكن الحركات وتتعلّط مجالس القوى وطلائع الحواسّ من تعب التلقّي والتبليغ فتكون الحالة الشبيهة بالسّكت والسّبات، وهي حالة النوم، وعند هذه الحال الطبيعية ترتاح القوى من الكدّ ويستريح القلب من شغب الفكر، وبرجوع الروح إلى الباطن يرجع الحرّ التابع لطبيعته إلى الباطن ويتّصف بالغوّور فيجود الطبخ في المطبخ وتحسن المضموم ويرتفع من المعدة البخار الرطب الذي يُبلّد الحواسّ ويكدرها عند النوم».

«وبالجملة فلهذه البّخارات وللمعدة في النوم علّةٌ تامة، وبقرّب⁽⁶⁹⁾ الأرواح من منبعها وتراجعها إليه يخلف ما تحلّل منها وينمي ما نقص، فإذا أخذت حظوظها من النوم إما مطفّفة أو مبخوسة أو قصداً بحسب الأمزجة الشخصية والعوارض وطبائع الفصول تراجعت إلى رتبتها ومقاعدها وعمرت دواوينها وأخذت في أفعالها، وهذه الحالة الثانية تسمى يقظة تتعاقب مع حالة النوم دائماً إلى أن تنقطع علاقة النفس بالجسد، وما دام القلب وادعاً ومزاجه سليماً لم يّعق تراجع الأرواح إلى القلب واستمدادها منه وقبوله عليها عائق، وهي الحالة الطبيعية الصحية، فإذا أزعج الروح مزعج⁽⁷⁰⁾ الطبيعة إلى النوم وأوحشته ظلمة الليل وبرّده وتراجع إلى مركزه - وهو القلب - ووجد منه القابلية بقاء مزاجه الشخصي الجامع بينهما على أصله أنس به وخلطه ووصله وأمدّ ذباله من مشكاته، وخلف ما تحلل منه وصرفه عند اليقظة

(69) في ج : ويقرب.

(70) في ج : تزعج، ولعل الصواب أن يكون : مزعج، والجملة على كل حال غامضة.

راضياً، وهي الحالة الصحية الطبيعية، وارتفعت لذلك أجرةً إلى أعالي البدن وسَقَفه - وهو الرأس - رطبة طبيعية من طبخ المهضوم تتم بها الحالة النومية الشبيهة بالحالة السكرية».

«وإن أَلْفاه قد تَغَيَّرَ مزاجه تَغَيِّراً حصلت به المضادة - إذ لا ينكر وقوع التضاد في الجنس الواحد - أنكره وجفاه وشغل عنه بنفسه ووقع التمانع والمنازعة وعدم القبول كمن يَرِدُ على صديقه الذي يَسْكُنُ إليه ويستريح لقربه فيجده قد غَضِبَ أو تَهَوَّرَ أو جُنَّ. فكلما قرب منه فرَّ أمامه وجفاه ورماه بالحجارة وطرده فانصرف عنه رغماً وقد قَوِيَ انزعاجه وقلقه واستصحب هذه الحال، إن كان السبب شديداً، من الضربان والضجر والقلق وأغراض سوء المزاج اليابس ما لا يُنْكَرُ، فإذا بحث عن الموجب الذي أساء خُلِقَ الروح القلبي وحرص على تعرّفه فكثيراً ما يلفى لآلام⁽⁷¹⁾ موقظة مقلقة وحوادث يَنْهِيها إلى الملك صاحب الرِّقَاع مما يُضْجِرُه ويشغله الاهتمام بها عن عادة قبوله على ذوي وُدّه، ويقابل الطبيب متولّي سياسة البدن، ذلك إما بسدّ طريق الحاسة إلى الخيال حتى لا يأتي الخبر بالمؤلم، أو تسكين ما استقرّ في عَضْوٍ أو بعضه⁽⁷²⁾، أو إحداث حسّه أو تكدير حسّ الخيال حتى لا يؤدّي صورة الألم بحالها، وربما يُلْفَى ذلك لكثرة إلحاح المفكرة بطلب الحكم من الملك - وهو القلب - في قضايا يُنفذها بعد تفصيل الخيال وتلخيص الفكر - وذلك من مضجرات الحكّام على ما هو معروف - فيقابل أيضاً ذلك بالتشاغل والإغفاء⁽⁷³⁾ وعلاج الوسواس وأمثال هذا مما ترتفع به عن القلب الوحشة ويفرغ عن الشغل بمحاربة من يؤذيه ويشغبه إلى ملاقة من كان يأنس به ويستريح إليه، ويستعمل ضروب العلاج الجسماني من نَطْوِلٍ ومشوم ومشروب ومأكول أو بالعلاج الروحاني من استدعاء قَرَحٍ وانبساط».

(71) في أ : للآلام.

(72) في أ : نقضه، وفي ج : نقضه.

(73) في ب، ج : والإغفاء.

«وقد ذكّرنا أن لصعود الأبخرة من المعدة إلى الدماغ علّةٌ تامّية، فربما عرض ما يمانعها من فسادِ قوامِ البخار لفساد مادّته أو فساد مزاجِ الحِل المتأدّي إليه البخار فيختل فيها القوام الذي يحصل به تمام تلك العلّة التّامّية لاستيلاء سلطان اليُس كالذي يعرض للناقهين والمسنّين، ومن جفّت رطوبته جفافاً فسد له مزاج الروح أو البخار أو الدماغ، فقابل ذلك من التّريطب والتّعديل بما فيه وسعه، فتبين من هذا بعضُ أحوال النوم والسّهر، وأن حقيقة النوم غُورُ الأرواح النفسانية والحيوانية ورجوعها إلى القلب وحركتها إلى داخل لمزج طبيعي ومنافع [غير يسيرة]⁽⁷⁴⁾ وأنّ السهر اتصالُ اليقظة، وهو حركة الروح إلى خارج، وأن المجرى الطبيعي تعاقبُ هاتين الحالتين بمناسبةٍ تقتضيها طبائع الفصول، حكمةٌ ممّن قدّر الأمور وأحسن ترتيبها، لا إله إلّا هو».

«وسألني عن سبب سهري الخاصّ فأخبرته أنّه لبخارٍ رديء من قبل الأخلاط المحترقة يتأدّي إلى القلب من فم المعدة لما بينها من المشاركة، وأنّ القصد مصروفٌ إلى علاجه، والتسديد والإصابة مستنحان من أنزل الداء وأنزل الدواء سبحانه. فقابل ذلك بعادته من حسن الإصغاء وصحّة التّصوّر وإفاضة الشكر، وأشار بتقييد هذا القول لمن ينتفع به فعَمِلَ بحسب ذلك، وحسبنا الله. وكان إملاؤه عِثي يوم الخميس الخامس والعشرين لذي حِجّة عام تسعة وستين وسبعائة».

الحركة والسكون :

«إنّ أنواع الحركات في بدن الإنسان تثير الحرارة فإن أفرطت برّدت آخرّاً بتحليل الحرّ الغريزي».

«وأما السكون فهو مُبرَّدٌ مطفئٌ للحرارة الغريزية لفقدان انتعاش الحرارة وللاحتقان الخانق، وهو مُرطَّبٌ لفقد التحلُّل من الفضول».

«يَسِّرُ الله حِيلَ الرياضة سياسةً للإنسان وطبيعةً لغيره⁽⁷⁵⁾، ولم يكن شيء أنفع لاجتماع موادِّ الامتلاء وتجفيفها وتحليلها والاستيثار فيها من الرياضة، إذ كانت تثير حرارةً لطيفةً تُحلِّلُ بها ما اجتمع من فضل كلِّ يوم، وتُعِينُ بالحركة على إخراجِه من المجاري المعتادة، فلا يجتمع على مرور الأيام مع تلك الحركة ما يُعْتَدُّ به، وهي مع ذلك تُنَمِّي الحرَّ الغريزي وتصلب المفاصل على المماسَّة والاصطكاك، والأوتار على التدد، والعضلات على الحركات، وتُعِدُّ الأعضاء بالإنقاء والإخلاء لقبول الغذاء، وتحرك الجواذب، وتحلّ التعقّدات وترق الرطوبات وتفتح المنافس».

«إن الرياضة تختلف بحسب المقدار والكيفية والكمية، إذ منها القليل والكثير والقويّ واللين والبطيء والسريع... وتختلف أنواعها بحسب الكيف إلى مشيٍّ وجريٍّ ورُميٍّ وصراعٍ ومنازعةٍ ومشاقفةٍ وركوب آلةٍ برٍّ أو بحرٍ، وما إلى ذلك، وهو أيضاً أنواع ملائمة... وأفضل الرياضة المشيُّ المعتدل والركوب».

«قالوا: وقت الشروع في الرياضة أن يكون البدن نقياً بحيث لا يَظُنُّ ببعض نواحي الأحشاء والعروق كيموساتٍ حاميةٍ رديئةٍ تنشرها الرياضة، وبعد أن ينهضم طعام الأمس، ودليله نضج البول قواماً ولوناً، وقرب حضور معتادٍ غذاء اليوم. وإن وجبت رياضةٌ شديدةً فالأفضل لها أن لا تكون المعدة خاليةً من الطعام جدّاً، وأن يكون فيها قليلٌ غذاء... ولينفض قبل الرياضة فضل الأمعاء والمثانة. وأفضل الأوقات منتصف النهار في الربيع أو ما قبله وأوائله في الصيف وأواخره في الشتاء،

(75) يقصد أن الرياضة والحركة طبيعة في سائر ما خلق الله من حيوان، وأنها في الإنسان سياسةٌ وتدبير.

وأما المقدار فيراعى فيه جودة اللون من حمرة وبراقة وخفة الحركات وانتفاخ الأعضاء ورُبُوها، فإذا تَغَيَّرَ اللون وثقلت الحركة وانبهر النَّفْسُ وتصبَّبَ العرق فقد خرجت الرياضة إلى حدِّ التعب وانتقل الانتفاع إلى الضرر، وتجتنب الحركة العنيفة وتطوّلها بعد النوم الطويل إذ الحركة قبله حافظة للصحة وبعده جالبة للمرض».

الحركة النفسانية :

«اعلم أن الروحَ ينفع في بدن الإنسان لتصوراتٍ نفسانية وهيآت نفسانية تؤثر فيه تأثيرَ التّصوِّرات النفسانية بالعرض، فالعوارض النفسانية تصاحبها أو تتبّعها حركاتُ الروح إما إلى داخل - وهي دفعة كما عند الفرح - أو بتدريج - كما عند الحزن - ويتبع الحركة إلى داخل برودة الظاهر وحرارة الباطن، وربما اختنقت من شدة الانحصار فَيَبْرُدُ الظاهر والباطن، ويتبع ذلك الغشي، فإن أفرط فالموت، وإما إلى الخارج - وهي دفعة كالغضب - أو بتدريج كما عند اللذة وعند الفرح المعتدل، ويتبع الحركة إلى خارج بَرْدُ الباطن وحرُّ الخارج، وربما أفرط بتحلّل الحرّ دفعة فَبَرَدُ الباطن والظاهر وتَبَعَهُ غَشْيٌ أو موت».

«والاحتقان والتحلل يلزم ما كان من ذلك دفعة، والنقصان وذبول الحرّ الغريزي يلزم أتباع ما كان منه متتالياً، وربما كانت حركة الروح إلى جهتين في وقتٍ واحد إذا كان العارض النفساني يُلْزِمُهُ غرضان اثنان من جهتين مختلفتين كما يعرض في الغضب مع الحزن وكما يَعْرِضُ في الخجل إذ ينقبض الباطن ثم يعود التماسك والعقل وينبسط ما انقبض فتثور بعده الحركة إلى خارج فيحمرُّ اللون».

«وأما ما يؤثر في الطبيعة من تصوّرات نفسانية من غير هذه - ينكرها من لم يتعاهد الحكمة - فكثيرٌ كتضرُّ العضو عند النظر إلى آفةٍ حلّت بنظيره في الغيّر وإعداء التبطّي والتشاؤب وسيلان اللُّعاب عند النظر إلى أكل الحوامض، وثوران الدّم عند النظر إلى الحمرة، وإعداء الرّمَد واشمئزاز البشرة من حكّ الحَزَفِ الأحرش وأمثال ذلك».